

بينة المكان

حيث تلتقي العلوم وتتكامل (١)

أ.د. مضر خليل عمر (٢)

المقدمة

بدأت الحضارة مسيرتها بالكلمة التي وثق بها الانسان معرفته للبيئة التي نشأ فيها وترعرع ، مسجلا ما توصل اليه تأمله الفكري العميق في الطبيعة وما ورائها، وفي ما يراه مناسبا لتنظيم الحياة وادارة دفة الحكم (مسلة حمورابي) وقيادة المجتمع للتقدم والرقي . كان منظوره شمولي ، و بملكة تحليلية نقدية رائعة ، ولهذا كان النتاج فلسفة ومن يتبحر فيها يكون ذو دراية في مختلف انواع المعارف وصنوفها .

لتوضيح هذا ، و بأسلوب التناظر Analogy يمكن ان نشبه العلوم بشجرة جذورها مصادر المعرفة المختلفة تجمعها وتعالجها مع بعضها البعض وفق فلسفة معينة . ويتطور علوم معينة انفردت لتشكل غصنا خاصا بها . وبمرور الزمن ، و بنمو شجرة الفلسفة تزداد اغصانها في تفرعاتها وامتداداتها اتساعا . و في الواقع هناك ثلاث تفرعات رئيسية للعلوم هي : (١) الانسانية ، (٢) العلوم الصرفة و (٣) اللسانيات و الفن (الادب) . وعلى الرغم من اختلاف اتجاهات اغصان الشجرة الا ان العديد من تفرعاتها الجديدة و الدقيقة عادت لتتلاقى مع بعضها البعض في النهايات الدقيقة . وهكذا هي العلوم ، شجرة وافرة الظلال متشابكة الاغصان ، كثيرة العطاء ، متناغمة مع تغذية التربة (مصادر المعلومات) و تشذيب الانسان ورعايته لها (توجيها وتلقيحا و متطلبات النمو الاخرى) .

وقد قيل ان العلم يوحد المنهج و يميزه تنوع تخصصاته حسب الموضوع قيد الدرس والتحليل ، فالمنهج العلمي (على اختلاف مدارسه ومناحيه) الا انه يصب في مصب واحد هو : اكتشاف معرفة جديدة والتحقق من صواب المعلوم منها . ويتقدم تخصصات المعرفة الاساسية المشار اليها انفا و تطويرها لتقنيات ومناحي واساليب بحثية و مدارس فكرية جديدة فقد انفتحت العلوم على بعضها البعض وتبادلت ما توصلت اليه ، فلم يعد نتاج تخصص علمي حكرا عليه ، (٣) بل ظهر ما يعرف بالتبني التقني Surrogate techniques والمعرفي ، فشاع استخدام تقنيات اساسها المنطق الرياضي مثل النمذجة Modeling والاحصاء(٤) والتجسيد

(١) ورقة مقدمة الى عمادة كلية التربية للبنات ، جامعة الانبار ، ندوة (حافات وتكامل العلوم ومستقبل البحث العلمي) ١٩ ١٥ ٢٠١٨

(٢) استاذ الجغرافيا الاجتماعية ، متقاعد ، mutharalomar@gmail.com ، Alomar.muthar@ymail.com

(٣) مدرسة شيكاغو البيئة نموذجا التي اخذت من علوم البيئة مفاهيم التغلغل والانتشار ثم السيادة لتطبيقها على المجتمع وعلى استعمالات الارض الحضرية ،

(٤) احصاء جغرافي ، احصاء حيوي ، احصاء طبي ، واحصاء تربيوي ، وغيرها

Simulation. اي ، التقت العلوم من جديد في التقنيات والاساليب البحثية والمنظور الفكري . وبقيت فلسفة العلوم ومدارسها الفكرية الفلك الذي تدور ضمنه العلوم ، ومن يشذ منها ويخرج عن سياقها يفقد سمة العلم ليبقى معرفة تم التوصل اليها عن طريق تطوير تقنية او فكرة لا اكثر. بعبارة اخرى ، بقيت العلوم متميزة عن بعضها البعض في الموضوعات ولكنها تلتقي في المنهج والتقنيات والمفاهيم .

و لمعالجة اثار الحربين العالميتين (الاولى والثانية) ، و لتوسيع اطار المشاركة العامة و العلمية منها على وجه التحديد في اعادة بناء الحضارة الانسانية وتحقيق تقدم اقتصادي واجتماعي فقد اشتركت الجامعات بثقل في هذه العملية ، واعدت النظر في مناهج الدراسة و موضوعات البحث العلمي وسياقاته . ادى ذلك الى بروز المنحى التطبيقي Applied Approach في البحث العلمي و المنظور النظامي System View عند دراسة اي موضوع ومعالجة اية مشكلة وعلى مختلف المستويات Scales ، بل و الربط بين المستويات المختلفة بقصد النظرة الشمولية ، وتسخير ذلك لخدمة المجتمع وسياسة الدولة الداخلية (وحتى الخارجية). ادى ذلك بمحصلته النهائية الى :-

- ١- تلاقي التخصصات العامة بصيغة دراسات : حضرية ، بيئية ، اجتماعية ، اقليمية و غيرها ،
- ٢- استحداث وحدات ومراكز بحثية متعددة التخصصات العلمية تعنى بموضوعات محددة Multidisciplinary subjects (مركز دراسات الخليج العربي على سبيل المثال لا الحصر) ،
- ٣- التوجه للقيام بأبحاث تتعدى التخصص وصولا الى التكامل المعرفي لموضوعات معينة Interdisciplinary (مركز علوم البحار إنموذجا لمثل هذه الدراسات الذي اصبح كلية خاصة بعلوم البحار)
- ٤- الاهتمام بالمكان وابعاده Space & place وعده وعاء يجمع موضوعات الدراسة وحيث تتكامل فيه . (وحدة الابحاث المكانية) وادى هذا الى تطوير تقنيات تعتمد المكان لجمع المعلومات وتحليلها و رسم سيناريوهات المتوقعة و المفضلة .

المكان كوعاء للتلاقي والتلاقح العلمي

في هذا المقال سأركز على اهمية المكان لتلاقي العلوم وتلاقحها لإنتاج ما يخدم المجتمع ويؤدي الى تقدمه وارتقاءه حضاريا . فقد لاحظ الانسان منذ بدء الخليقة أن :-

- الاشياء والاجسام تشغل حيزا أو مكانا ما ،
- وأن الجسم الواحد لا يشغل مكانين في آن واحد ،
- وأن المكان لا يحوي جسمين منفصلين في زمان واحد ،
- وأن المكان ضروري لتمييز الاشياء وإدراكها .

يعني هذا ان كل ما تدرسه التخصصات العلمية من اشياء واجسام موجودة في المكان متفاعلة معه ، ومن سمات تميزها وجودها في هذا المكان دون غيره ، والاهم ان ادراكها يكون من خلال المكان نفسه لأنها جزء من هويته وكيونته . فبدون المكان تبقى دراسة الاشياء والاجسام والموضوعات مبهمة وعائمة .

وموقف الانسان من فكرة المكان لم تأت دفعة واحدة ، ولا اعتباطا ، سواء اكان مفهوما ميثولوجيا ام فلسفيا . فقد مرت الفكرة بمراحل تطور عديدة حتى وصلت الى النظرة النسبية التي وحدت بين الزمان والمكان ، وعد الزمان بعدا رابعا لأبعاد المكان الثلاثة ، عرف المصطلح ب(الزمكان) . والمكان فلسفيا : هو ما يحل فيه الشيء او ما يحوي ذلك الشيء ويميزه و يحده و يفصله عن باقي الاشياء . فهو عند افلاطون : حاويا وقابلا للشيء وعند ارسطوطاليس : محلا اقليديسيا ذو ثلاث ابعاد هي الطول والعرض والعمق . بشكل مباشر أو غير مباشر فان العلوم جميعا معنية بالمكان بصيغة او اخرى .

فاللغة مثلا هي تعبير عن شخصية المكان و هوية ساكنيه ، والعلوم جميعا معنية بموضوعات تخصصية عناصرها ومادتها موجودة في المكان . فهل ما تدرسه العلوم بعيد عن الأرض ؟ أم فيها ؟ أم عنها ؟ أليست الأرض مكان ؟ وحتى علم الفلك فانه يدرس الأماكن ضمن الكون . فليس هناك علم غير معني بالمكان . وكل تخصص علمي يدرس شيء موجود في مكان ما ، ويتعمق بتحليل خصائص ذلك الشيء ، عدا الرياضيات فإنها تجريد مطلق . فما يجمع الاشياء ، والتخصصات العلمية ، و مواد الدراسة هو المكان ، فالمكان يشكل وعاء لجميع الاشياء ، ولهذا اصبح قاعدة مناسبة لجمع البيانات والمعلومات عن الاشياء (بغض النظر عن طبيعتها ومصدرها) . وقد توصلت الابحاث العلمية لهذا و عملت على تجميع الجهود لدراسة المكان و تبادل المعلومة والبيانات بين التخصصات المعنية بالمكان . وتلافيا للتعارض الناجم عن تنوع مصادر البيانات تولدت الحاجة الى شيء مشترك يجمعها ويشكل جسرا تتلاقى عنده المعلومات والبيانات فكانت قاعدة بيانات مكانية Location Oriented Database ، مستفيدة من الصور الجوية والمرئيات الفضائية و الرادارية . استكمل هذا بتطوير تقنيات تحليل مكانية Geo-Spatial Statistics واستحداث نظم معلومات جغرافية GIS .

وفي الوقت الذي تم فيه اعتماد هذا المنحى العلمي – الاداري الجديد وتطوير تقنياته ومستلزمات النهوض والارتقاء به الى اعلى المستويات ، فقد رسمت العديد من الدول سياساتها المحلية ، العلاجية و الوقائية باعتماد سياسات مكانية Area Based Policies . ففي التنمية الاقليمية برزت مسميات مثل اقاليم داكنة Dark , Gray and White regions واخرى رمادية و الثالثة بيضاء لتأشير درجة الحاجة الى الدعم السياسي والمادي لها . ومع تعاظم الاهتمام بالبيئة و التنوع الحيوي حددت مناطق للحماية البيئية باسم محميات طبيعية وتم ترسيم حدود احواض الانهار . وفي مجال التنمية الحضرية ، قسمت المناطق الحضرية حسب المستوى العمراني لموجودها العمراني الى : مناطق سكن متهرئ ، متدني العمران ، بحاجة الى تحسين و تلك التي بحاجة الى تغليف خارجي Envelope policy . ومن التسميات التي اعتمدت لأغراض تخطيطية : مناطق الحرمان ، مناطق الحرمان المضاعف (المركب) ، مناطق المشاكل (الجريمة والعنف) ، كما اعتمدت هذه الصيغة لرسم سياسات الحد من التلوث :

مناطق ملوثة ، قليلة التلوث ، ومناطق نظيفة . بعبارة اخرى ، كان المكان وما زال نقطة البداية للتقصي و محط تنفيذ المقترحات و السياسات الرسمية . انه (المكان) البداية وعنده النهاية . بعبارة اخرى ، بعد تلاقي العلوم في المنهج والتقنيات ، و الاطار الفلسفي ، اصبحت موضوعاتها متداخلة ومتشابكة بشكل دفع الى استحداث وحدات ومراكز بحثية متخصصة بهذه الموضوعات .

وبتطور تقنيات الالفية الثالثة من صور جوية ومرئيات فضائية و نظم معلومات جغرافية وشيوع استخدامها برزت استخدامات جديدة لنتائج الابحاث ذات ابعاد ومضامين مكانية واضحة للعيان ، هدفها خدمة المجتمع ، مثل : دراسة مشاكل المكان \ الاماكن ، تحليل شخصية المكان ، تنمية المكان وتطويره ، تحليل الامكانيات الكامنة في المكان ، رسم سيناريوهات التطوير واختيار البديل الافضل ، تحديد الموقع الانسب للخدمات المجتمعية ، تحديد مسارات النقل اثناء الازمات والاختناقات ، رسم الانطقة العازلة للمناطق التي يتوقع ان تتأثر بحدوث معين (فيضانات مثلا) ، تحليل علاقة الجوار بين الاحداث والاشياء ، والعديد غيرها . وجميعها موضوعات يشترك فيها اكثر من تخصص علمي واحد .

وفي الواقع فان العديد من الموضوعات التي تدرس في الجامعة ، والتي لها اهميتها ودورها في تقدم البلد و مجتمعه هي موضوعات متعددة – متداخلة التخصصات . وفي الدراسات العليا على وجه الخصوص . فعلى سبيل المثال لا الحصر لنفكر بصوت مسموع عن التخصصات المعنية والمشاركة في دراسة :-

التربة ، التغيرات المناخية والتصحر ، التوسع الحضري ومشاكله ، الهجرة والنزوح القسري ، مشاكل الموارد المائية ، التنمية المستدامة ، البطالة وسوق العمل ، الصحة والبيئة ، الزراعة والصناعة ، الاسكان ، النقل والتسويق ، الجريمة ، تقدم المجتمع ، التدهور البيئي والتنوع الحيوي ، والقائمة طويلة جدا .

وماذا بعد ؟

بما ان البحث العلمي اداة فاعلة لتطوير الباحث والجامعة والمجتمع ، وهو بثلاث فئات رئيسية ، هي :-

- ١) الابحاث الشخصية (لأغراض الترقية العلمية و تلبية نزعة ذاتية في حب العلم والتقصي) ،
- ٢) الرسائل الجامعية (اولية وعليا وما بعد الدكتوراه) ،
- ٣) دراسات تعاونية مشتركة بين الجامعة (فردا او مؤسسة) ومؤسسات الدولة والمجتمع .

لذا ، علينا ان نفكر بعمق وبتجرد بالكيفية التي يمكن النهوض بها بمستويات البحث العلمي المختلفة ، فالنهوض بأحدها لا يفي بالغرض ولا يحقق الكثير ، وان تحريك احدها ودفعه للأمام قد يحفز المستويات الاخرى ويسحبها معه .

الابحاث الشخصية ،

وهي الابحاث التي تكتب في الغالب استجابة الى نشاط علمي (ندوة ، ورشة عمل ، مؤتمر) وبمنظور الترقية العلمية . وبغية عدم تركها (مزاجية) و كردود افعال وتلبية لطلبات طارئة ، من الضروري ان يكون للقسم العلمي استراتيجية علمية واضحة (لثلاث او خمس سنوات) و تحدد خطة الابحاث سنويا وتقوم دوريا في ضوء المنجز و المستجد .

يرتبط بهذا سياقات و فاعلية الترقيات العلمية و يكمله الابتعاد عن اللاموضوعية والمجاملات التي تضر بالجامعة والمجتمع ، والتي يجب ان يكون الموقف منها حازما ، لأنها فساد علمي ينخر في جسم المجتمع كما يفعل مرض السكري في جسم الانسان .

الرسائل الجامعية ،

تتسم نسبة غير قليلة من الرسائل الجامعية بال تكرار والاستنساخ وعدم التكامل (لا موضوعا ولا مكانا ولا زمانا) ونسبة التجديد والحدثة فيها قليلة جدا . بعبارة ادق ، اتباع نهج التقليد و الاقل جهدا قد حصر الفائدة من الكثير منها لأغراض شخصية (الشهادة الاكاديمية) فقط. وهذه حالة ناتجة عن الحالة المشار اليها آنفا (مرض السكري) ومكملة لها .

لتجنب هذه الحالات ، و وضع استراتيج علمي للجامعة ارى استحداث عمادة للدراسات العليا تأخذ على عاتقها تحديد مسار الابحاث موضوعا ومنهجا وتكاملا بين التخصصات المتداخلة . وان يكون الاشراف مشتركا بين التخصصات ذات الصلة بموضوع الدراسة . والاهم ان تكون كورسات الدراسة متداخلة التخصصات تؤهل الباحث للكتابة في موضوعه . اي ان يكون اختيار عنوان الدراسة وموضوعها منطلقا ومحددا لنوعية الكورسات وطبيعتها . ويفضل ان يكون اختيار موضوعات البحث والدراسة بالتعاون مع مؤسسات الدولة والمجتمع .

دراسات مشتركة ،

خلال عقد التسعينات وبسبب ظروف الحصار ، ولتحسين الوضع المادي لأستاذ الجامعة برزت صيغة العمل الصيفي و العمل المشترك مع مؤسسات الدولة ، وكانت ذات فائدة كبيرة جدا ، بالجانب العلمي على وجه التحديد . العودة الى مثل هذا التعاون بصيغ جديدة ضرورة وطنية و علمية تستوجبها مرحلة اعادة بناء العراق .

أ.د. مضر خليل عمر

www.muthar-alomar.com